سؤال

عندما سألتني ابنتي عن الله(٤)

النبي الخاتم ﷺ

د. عزة رمضان العابدة

مطوية رقم ١١ تسلسل ١٤٩ اصدار ٢٠٢٢

كان اليوم هو الجمعة موعد زيارة جدتي الحبيبة، انطلقت أمي بسيارتها حتى وصلنا إلى بيت جدتي، لكنها لم تتوقف طويلا، بل وجدناها في انتظارنا ثم ركبت معنا. لأن أمي أخبرتني أننا سنقضي هذه العطلة الأسبوعية في إحدى دور الأيتام. في الطريق توقفنا عند محل لبيع الهدايا والألعاب، اشترينا عددا منها، مع بعض الحلوى اللذيذة التي أحبها، من أجل أن نوزعها على الأطفال هناك. وعندما وصلنا وجدنا مديرة الدار في استقبالنا، ثم التقينا بالأطفال وأخذنا نتعرف عليهم ونتحدث معهم، ثم قدّمنا لهم ما معنا من هدايا وحلوى.

بدت علامات الفرح والسرور على وجوه الأولاد مما زاد من سعادتنا وتمنينا أن نقضي معهم وقتا طويلا، وعندما أشارت أمي إلى لأسلّم عليهم وأودّعهم، ذهبت إليها وسألتها: هل من الممكن أن نأتي هنا مرة أخرى قريبا؟

قالت أمي: حقا كم هم لطفاء، وأنا سعيدة أنك أحببتهم يا بنيتي، وأعِدك بأن نأتي مرة أخرى ونقضي معهم وقتا أطول. لكن الآن لا بد أن نعود إلى المنزل لأن جدتك مريضة كما تعرفين، ولا بد لها أن تستريح وتتناول الدواء.

البنت: أنا أحب جدتي كثيرا وأدعو الله أن يشفيها وتصبح صحتها أفضل، وايضا لنتمكن من المجئ قريبا.

الأم: طبعا يا بنيتي الحبيبة سنأتي؛ فقد وصانا نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم بهؤلاء الأطفال الأيتام خيرا، فقال صلى الله عليه وسلم في حديث شريف: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة، والوسطى، وفرج بينهما» أي أن من يهتم باليتيم ويحبه ويقدم له ما يحتاج اليه فثواب ذلك عظيم حيث انه يكون بجوار النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة. وهذا من جمال ديننا وجمال خلق نبينا صلى الله عليه وسلم.

البنت: هل قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه كان يتيما؟

الأم: صحيح يا بنيتي أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كان يتيما؛ مات أبوه (عبدالله بن عبدالمطلب) وهو جنين في بطن أمه (آمنة بنت وهب). ثم ماتت أمه وهو طفل صغير عمره 6 سنوات. فأخذه جده عبدالمطلب ليرعاه، لكنه توفي أيضا وترك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعمره 8 سنوات، فانتقل إلى عمه أبي طالب ليربيه مع ابنائه.

البنت: كم كانت حياة النبي صلى الله عليه صعبة!

الأم: أجل يا بنيتي، فهو صلى الله عليه وسلم لم يرَ أباه، ولم ينعم بحنان أمه، بل كان ينتقل من بيت إلى بيت، ومن مربي إلى آخر، وهكذا ذاق مرارة اليتم وألمه، لكن ليس هذا هو السبب الذي جعله يقول لنا هذا الحديث.

البنت: اذن لماذا قال النبي ذلك عن الأيتام؟

الام: في البداية يا بنيتي لا بد أن نعرف أن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى؛ اي لا يخبرنا عن شئ من تلقاء نفسه أو حسب رغبته، بل أنه يأتيه ملَك الوحي فيبلغه عن الله رب العالمين.

البنت: لقد أخبرتنا معلمة اللغة العربية ان ملَك الوحي هو جبريل عليه السلام كان ينزل على جميع الرسل والانبياء عليهم الصلاة والسلام، وحكت لنا كيف نزل على سيدنا محمد في غار حراء وكان عمره أربعين سنة، فقال له: اقرأ! فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم: ما أنا بقارئ؛ أي أنا شخص أمي لا أستطيع القراءة ولا الكتابة. فكررها جبريل ثلاثا، ثم قال: « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» أول سورة العلق.

لكن المعلمة لم تحك لنا ماذا حدث بعد ذلك، فهل تخبريني يا أمي بباقي القصة؟

الأم: بعد نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم أخذ يرتجف من شدة الخوف فأسرع الى زوجته السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وقال لها: زملوني زملوني! أي غطّوني، ففعلت حتى هدأ خوفه شيئا فشيئا، ثم بدأ يحكي لها ما حدث في الغار ويخبرها بما رآه.

البنت: وماذا فعلت السيدة خديجة؟

الأم: صدّقته على الفور وأخذت تطمئنه وتهدئه قائلة: لن يخذلك الله أبدا؛ أي لن يتخلى الله عنك، فإنك تصل الرحم وتساعد الفقير وتكرم الضيف وتعين المحتاج، ومن يفعل ذلك فلن يضيعه الله. هكذا كانت بشارة زوجته له صلى الله عليه وسلم. ولم تكتفِ بالكلام بل أخذته الى ابن عمها ورقة ابن نوفل فقد كان صاحب علم، ليسألوه عما حدث فقال لهما: إنه الناموس الذي كان يأتي موسى؛ أي ملك الوحي الذي كان ينزل على سيدنا موسى عليه السلام، وأكّد له أنه نبي هذا الزمان، وأنه النبي الخاتم، فلا نبي بعده. وهكذا كانت بداية بعثته صلى الله عليه وسلم، حيث كان العرب بل والعالم في أشد الحاجة إليه.

البنت: ولماذا كانوا يحتاجون إليه يا أمي؟

في هذه الاثناء كانت الأم قد توقفت أمام منزل الجدة ونزلوا من السيارة ليوصلوها الى البيت ويعطوها الدواء ويطمئنوا عليها. وعندما انتهوا من ذلك قامت البنت لتودّع جدتها، فأعطتها قطعة من حلوى الشيكولاته، إلا أن الأم أخبرتها أن هذه الحلوى لا تناسب جدتها، بل قد تضرها لأن الطبيب قد منع عنها السكريات خوفًا على صحتها.

وفي طريق العودة طرحت البنت على أمها نفس السؤال: لماذا كان العرب يحتاجون الى النبي في هذا الوقت يا امي؟

الأم: لأسباب كثيرة يا ابنتي، منها أن العرب في هذا الوقت كانوا قد تركوا عبادة الله الواحد الأحد وكانوا يعبدون الأصنام التي يصنعونها بإيديهم. فأراد الله أن يبعث فيهم رسولا منهم يعرّفهم بالله الخالق الواحد ويعرّفهم بصفاته واسمائه ويخبرهم بما يريده الله منهم وبما يجب عليهم ان يفعلوه في حياتهم، ويبين لهم الخير والشر، ويذكر لهم ما يضرهم وما ينفعهم.

البنت: هل يفعل النبي مع الناس ما يفعله الطبيب مع المرضى مثل جدتي عندما منعها الطبيب من أكل الشيكولاته؟

النبي والطبيب متشابهان يا بنيتي في بعض الأشياء، إلا أن النبي مهمته أصعب من الطبيب بكثير، لأنه يبلغ عن رب العالمين ويأمر الناس بعبادة الله، ويخبرهم بما ينفعهم ليس في الدنيا فقط وانما أيضا في الحياة الآخرة، وكثيرا ما يقابله الناس بالرفض ويتعرضون له بالأذى خاصة في البداية، وهذا بالضبط ما حدث مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في مكة. فمنذ أن أخبرهم صلى الله عليه وسلم أنه نبي من عند الله وهم لا يفكرون في شئ إلا في التخلص منه ومن دعوته، بل ومن كل من آمن برسالته.

الأم: كان النبي صلى الله عليه وسلم على يقين بأن الله لن يتركه، هل تتذكري ما قالته السيدة خديجة له؟

البنت: نعم قالت إن الله لن يضيعه لان يفعل الخيرات ويتصف بأحسن الصفات.

الأم: بالضبط يا بنيتي، بل إن العرب أنفسهم كانوا يشهدون بحسن أخلاقه صلى الله عليه وسلم حتى انهم كانوا يلقبونه بالصادق الأمين. وكأن الله سبحانه وتعالى كان يهيئ سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم لحمل الرسالة الخاتمة التي ستظل الى يوم القيامة

البنت: وكيف تصرّف معهم النبي صلى الله عليه وسلم؟. فقد وُلد يتيما واشتغل برعي الأغنام ثم بالتجارة وسافر وهو صغير، ولقي كثيرا من التعب والعناء، فلم تكون حياته سهلة كما أخبرتك. وحتى بعد البعثة تعرّض لكثير من أذى المشركين لكنه صبر وبذل جهدا كبيرا في دعوة الناس الى عبادة الله الواحد الأحد الذي خلقهم وهو وحده يعلم ما يضرهم وما ينفعهم.

البنت: ولماذا لم يؤمن به كل الناس في ذلك الوقت؟

الأم: الأمر ليس بهذه السهولة يا بنيتي، فالبعض منهم كانوا يبيعون الأصنام فرفضوا ترك الأصنام التي يتكسبون من صنعها، والبعض كان يعلم في قرارة نفسه ان النبي صادق لكنه في نفس الوقت كان يرفض أن يؤمن بدين يساوي بين البشر جميعا، لأنه يرى أنه أفضل من غيره بسبب ماله الكثير او عائلته الكبيرة. وبعضهم كان يكابر ويرفض أن يفكّر بعقله

البنت: وماذا فعل سيدنا محمد معهم؟

الأم: ظلّ يدعوهم الى الإسلام وما فيه من أخلاق حسنة، بل كان يقول لهم: «إنّما بُعثتُ لِأتمّمَ مكارمَ الأخلاق»، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم لخّص الدين كله في الأخلاق الحميدة ومعاملة الناس بطريقة حسنة. وقد أيّده الله تعالى بكثير من المعجزات لتكون دليلا على صدقه في أنه نبي من عند الله. منها مثلا معجزة الإسراء والمعراج وانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة وحنين الجذع له صلى الله عليه وسلم، وكل معجزة من هذه المعجزات لها قصة سأحكيها لكِ في مرات قادمة.
إلا أن أهم معجزة كانت هي القرآن الكريم لأنها المعجزة العظيمة والباقية الى يوم القيامة. فهي كلام الله الذي أنزله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، نقرأه في كل صلاة ونعبد الله بتلاوته ونحاول فهم آياته حتى نطبقها في حياتنا ونكون خير أمة كما أرادنا عز وجل، حيث قال عنا في كتابه الكريم: « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ»، حتى يرضى الله عنا ويسعد بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة.